الفصل الثالث

الدور الأوروبى فى صناعة الإرهاب

فى مايو سنة ١٩٨١ حدثت واحدة من إحدى أعمال العنف السياسى والأيديولوجى، عندما حاول أحد الأرهابين الأتراك أن يغتال البابا يوحنا بولس الثانى أمام كاتدرائية سان بطرس بالفاتيكان (الذى قام بتلك المحاولة هو «على أغا» والذى ينتمى إلى جماعة «الذئاب الرمادية» اليمينية المتطرفة، وقد ألقى القبض عليه، وأودع أحد سجون إيطاليا ليقضى سجنًا مدى الحياة).. بعدها بعدة أشهر وفى سبتمبر ١٩٨١ فإن إرهابيًا ألمانيًا ينتمى لمنظمة الجيش الأحمر (آر. آ. إف) استعمل قاذفًا روسى الصنع (آر - بى - جى - ٧)، وقانصًا (كوخ ٣٣) ليهاجم سيارة الجنرال الأمريكى (فريدريك كروسن) بالقرب من (هايدلبرج)، وعلى الرغم من إصابة السيارة فى (الموتور) إلا أنها اندفعت بسرعة بعيدا عن متناول القاتل، فأصيب الجنرال وزوجته بإصابات طفيفة، فى حين لم يصب سائقه ومساعده بأى سوء. وطبقًا للتقارير الإخبارية فى أكتوبر ١٩٨١ فإن فريقًا ليبيًّا أرسل ليغتال السفير الأمريكى فى إيطاليا (ماكسويل راب) كرد فعل لضرب أمريكا طائرتين ليبيتين فوق خليج (سرت) قبل هذا الحادث بعدة أشهر، وللاحتياط فقد غادر السفير الأمريكى (الذى لم تنجح محاولة اغتياله) روما فى الوقت الذى بدأ فيه البوليس الإيطالى التحقيق.

هذه المحاولات الأخيرة بالإضافة إلى ٤٠٠ حادثة أخرى من العنف السياسى والأيديولوجى فى أوروبا، حدثت فى عام ١٩٨١ وحده؛ مما يوضح أننا نعيش

فى عصر الإرهاب الحديث بكل تشعباته المخيفة.. هذه الحوادث أصابت ممثلى الحكومات والسياسيين والقضاة والدبلوماسيين والعسكريين ورجال البوليس ورجال الأعمال والقادة العماليين وأساتذة الجامعات وطلبة الكليات وتلاميذ المدارس والحجاج، وأفراد البعثات الأوليمبية... إلخ.

الحركات الإرهابية أصابت أيضًا أشياء أخرى غير الأرواح البشرية، كالمكاتب الحكومية وأقسام البوليس والمطاعم والفنادق والبنوك ودور العبادة والمحلات التجارية وأنابيب البترول والمطارات ومحطات الإذاعة ومراكز الكمبيوتر والمعلومات.... إلخ.

وفى الفترة من عام ١٩٧٠ إلى عام ١٩٨١، فإن ٣٨٥١ عملية إرهابية (سواء داخلية أو دولية) قد حدثت فى أوروبا؛ مما نتج عنه ١٤٦٤ قتيلاً و ٢٨٣٤ جريحًا، وخسائر الممتلكات بلغت ٨٠٠ مليون دولار.

والحقيقة أن هذا العنف السياسى ليس غريبًا على أوروبا، ففى الحضارات القديمة كحضارة اليونان وروما حيث الصراع على الهيمنة والقدرة بين الدول، استعملت فى هذا الصراع قوى أخرى، لم تكن مشروعة كالقوى السيكولوجية والسسيولوجية. فالدول الأوروبية البحرية، فيما بين القرن السادس عشر وأواخر القرن الثامن عشر، كانت توظف القراصنة وتستأجر العصابات بغرض الإرهاب البحرى؛ من أجل تحقيق أهداف وأغراض سياسية قومية.. وبالمثل مُورِسَ الإرهاب بواسطة الحزب الحاكم فى فرنسا خلال الثورة (١٧٨٩ ـ ١٧٩٤)؛ حتى استقر الحكم للحكومة الإرهابية فى عام ١٧٩٣ ـ ١٧٩٤.

علاوة على ذلك فهناك العنف (التحتى)، وهو الذى تمارسه الجماعات السرية ضد حكوماتها وضد الجماعات الأخرى والتنظيمات المضادة، هذا النوع من العنف صار شائعًا فى القرن التاسع عشر، وأوائل القرن العشرين، وذلك مثل الذى كانت تمارسه حركة (نارودنايا فوليا) ضد روسيا الإمبريالية (فى ذلك الوقت).

وكانت جماعات قومية مثل: الأيرلنديين والمقدونيين والصرب والأرمن، تكافح من أجل الوجود، ومن ذلك لجوئها إلى أعمال العنف الدعائية التى تلفت الأنظار لوجودهم وقضيتهم.. وعلى الرغم من أن هذه الجماعات قد فشلت فى تحقيق أهدافها الاستراتيجية، إلا أن أحدا لا ينكر أنهم قد حققوا بعض النجاح فى تأليب الرأى العام، فقد اغتالوا على سبيل المثال: الرئيس الفرنسى «كارنو» فى ١٨٩٤، والإسكندر الثانى فى سنة ١٨٩٧، ورئيس وزراء إسبانيا فى ١٨٩٧، وإمبراطورة النمسا «اليزابيث» فى سنة ١٨٩٨، وملك إيطاليا «أمبرتو» فى سنة ١٩٠٠.

واستمرت أعمال العنف والإرهاب فى بعض الدول الأوروبية، مثل: روسيا وإسبانيا حتى سنة ١٩١٤، فى حين انتهت تمامًا فى هذا الوقت فى وسط وغرب أوروبا. ولكن فى الفترة بين الحربين العالميتين، عاد العنف العقائدى والسياسى للظهور مرة أخرى، تقوده الجماعات القومية هذه المرة أكثر من الجماعات السياسية المعارضة للحكومات.. وكان هناك عديد من تلك الجماعات القومية المتطرفة فى فرنسا وألمانيا والمجر وإيطاليا ورومانيا. أما أهم الاغتيالات فى تلك الفترة فقد كان اغتيال الملك «ألكسندر» ملك يوجوسلافيا فى مرسيليا فى إبريل سنة ١٩١٤.

وفى أثناء الحرب العالمية الثانية.. فإن العنف السياسى والعقائدى كان موجهًا هذه المرة ضد الاحتلال النازى، ولكنه لم يستمر كذلك.. وحتى أواخر سنة ١٩٦٠ والحقب التى تلته، قادت أوروبا وأساسًا أوروبا الغربية، كل المناطق الأخرى فى العالم إلى الإرهاب.. وتلاحقت الأحداث السياسية مسهمة فى ازدهار هذا النوع الأخير (الذى قادته أوروبا) من الإرهاب منها على سبيل المثال:
ـ هزيمة الدول العربية فى حرب يونيو ١٩٦٧، وما صاحبها من تطور للعنف الفلسطينى كنوع من التنفيس من جراء كبت الاحتلال.. كذلك حرب فيتنام وثورة الطلبة فى باريس سنة ١٩٦٨.. هذه الظروف، وغيرها بالإضافة إلى

التطور المذهل فى التكنولوجيا وخاصة سهولة ورخص المواصلات والاتصالات مما جعل هناك امتدادات فى أوروبا للحركات الأصولية المتطرفة، التى بدأت تظهر فى دول العالم الثالث، وقد تكون هذه الامتدادات عقائدية فمثلما كان الأصل يكون الفرع، أو أنها فقط امتدادات فى التأثيرات والأساليب قوّت النزاعات الأثنية الأوروبية والحركات الانفصالية.

ومنذ عام ١٩٧٠ أحصيت فى أوروبا (٢٠٠) جماعة إرهابية من أشهرهم: (١) الجيش الجمهورى الأيرلندى (IRA)، وهى حركة كاثوليكية مسلحة تنادى بانفصال أيرلندا الشمالية عن بريطانيا. (٢) جماعة بادر ماينهوف (RAF)، وهى جماعة متطرفة فى ألمانيا الغربية تهدف إلى الإطاحة بالنظام الرأسمالى والنظام البرلمانى الألمانيين. (٣) جماعة الألوية الحمراء فى إيطاليا، وهى حركة ماركسية تهدف هى الأخرى إلى خلخلة السيطرة الرأسمالية للحكومة والسعى لإرساء قواعد الشيوعية. (٤) جماعة «الباسك قومية وحرية» رمزها بالإسبانية (ETA)، وهى حركة عسكرية سرية تنادى بوطن قومى والانفصال عن إسبانيا.

* وأهم العوامل التى أنعشت الإرهاب وكثّفت من وجوده، هى:

أولاً: أن كثيرًا من تلك الجماعات الإرهابية فى أوروبا كانت قادرة على الاستمرار بقوة، وذلك لتمتعها بتعاطف الآلاف معها سواء داخل حدود البلاد أو خارجها، وأيضًا بمساعدات الحكومات الأجنبية لتلك الجماعات. ويوضح (بريان جينكنز) هذه الظاهرة فيقول: (نسبيًّا فإن حركات إرهابية قليلة هى التى تنمو داخل وطنها، وتكون مكتفية بنفسها ومواردها الذاتية، على الرغم من أنه صحيح أيضًا القول بأن الجماعة التى ليس لها جذور فى وطنها، فإنه من غير المحتمل أن تنتعش وتنمو بغض النظر عن الدعم الأجنبى). النقطة المهمة هى أن الدعم الأجنبى يمكّن تلك الجماعات من زيادة ضرباتها المؤثرة والموجعة، ويساند جهودها حتى تحقق أغراضها.

ثانيًا: من العوامل التى تساعد أيضًا على ازدهار الإرهاب هو تقبل وتشجيع، بل ودعم الضعف السياسى والعقائدى الموجود فى بعض الدول، فقد صار واضحًا أن هذا الضعف (وحسب رأى كلاوس فيتز) هو استمرار للحروب بوسائل أخرى؛ من أجل فرض مطالب معينة على الحكومات، فجماعات إرهابية صغيرة باستطاعتها أن تفرض مطالبها السياسية على المستوى القومى، بل وإنها قد تستطيع أن تتلاعب بميزان القوة فى منطقة من المناطق.

هذا المنطق يوضحه (جون كولينز) فيقول:

(إنه من السهل جدًا أن تطلق الإرهاب.. صعب جدًا أن تتحكم فيه. إن قادة الدول الذين ليس فى قلوبهم رأفة يستطيعون أن يمسكوا بأعدائهم، دون الخوف من الثأر، فإذا ما تولى الإرهابيون تلك المسئولية، فإن أخطار تألب الرأى العام تقل إلى حدود دنيا.. ودول الصف التاسع تستطيع أن تمارس ضغوطًا على القوى العظمى كالولايات المتحدة باستخدام التكتيكات الإرهابية).

ـ ويوضح ذلك التطور (راى س. كلاين) فيذكر:

(إن استخدام الإرهاب كتكتيك من أجل الإخلال بنظام متحضر فى المجتمعات المفتوحة، يعدّ من الحقائق التى تكاد تكون ثابتة فى الحياة الدولية فى هذا العصر.. وهو يعدّ أقل حدة من الحروب المعلنة ذات الطبيعة العسكرية الشاملة المنظمة والمنتظمة، ولكن الإرهاب لا تعدّه الدولة الديمقراطية حربًا تحت أى مسمى، ونادرًا ما تتخذ ضده إجراءات مؤثرة) تذكر موقف بريطانيا من قضية منح اللجوء السياسى لعدد من المتطرفين المصريين والأفغان العرب.

ثالثًا: إنه ليس من المستغرب أن يتبلور الفكر الاستراتيجى للدول الشيوعية فيما انتهجه الاتحاد السوفيتى، من حيث اعتبار الإرهاب بديلاً مناسبًا للحرب التقليدية، التى أصبحت مكلفة جدًا، ومن الصعب التحكم أو مجرد التكهن بنتائجها. واتجه الاتحاد السوفيتى لتدعيم ما يسمى بالحركات الثورية الشعبية ضد الديمقراطية الإمبريالية، التى قادتها دول أوروبا الغربية وأمريكا.

ودعم وتدعيم الإتحاد السوفيتى للإرهاب كان لتحقيق أغراض سياسية فى أوروبا، لا تستطيع الحروب التقليدية المعلنة تحقيقها، من هذه الأهداف (بحسب ما جاء فى دراسة حديثة عن الإرهاب وجذوره أعدّها مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية بجامعة «جورج تاون»):

(١) جذب الدول الأوروبية غير الشيوعية إلى النظام السوفيتى، أو على الأقل إلى منطقة النفوذ والتأثيرات السوفيتيين، مثال ذلك: أنشطة موسكو فى البرتغال، والتى تراوحت ما بين دعم الحزب الشيوعى هناك إلى اختراق الإدارة القائدة فى هذا البلد؛ مما مكن الثوريون من السيطرة على الحكم فى السبعينيات.

(٢) إنهاك وإضعاف البنية التحتية الاقتصادية والسياسية للدول، التى تقف ضد التحالفات السوفيتية، مثل: آل «ناتو» (حلف الاطلنطى).. مثال ذلك؛ الدعم القوى للجيش الجمهورى الأيرلندى (IRA)، حيث إن موسكو كانت تأمل أن استمرار العنف فى (آلستر) قد يجعل موقف بريطانيا محايدًا بانشغالها بأمورها الداخلية.

(٣) إحباط مجهودات الدول التى تسعى أو تفكر فى الانضمام للـ (ناتو) ـ فعلى سبيل المثال، دعمت موسكو حركات الباسك الانفصالية آملة فى إغراق إسبانيا فى حالة من الفوضى العسكرية، التى تجعل من الصعب قبولها كعضو كامل العضوية فى دول المجموعة الأوروبية.

(٤) زعزعة الاستقرار الأوروبى الغربى، إذ إن استقرار أوروبا الغربية يعدّ عامل جذب للدول الأوروبية الشرقية وخلخلة للتحالف السوفيتى، وكانت أولى الدول التى ظهرت عليها تلك الأعراض هى بولندا.

ذلك كان هو دور الاتحاد السوفيتى (سابقًا) فى إنعاش الإرهاب، وقت أن كان هذا الاتحاد قائمًا يمارس دورًا فعالاً كقوة عظمى، وانهياره لا يعنى انهيار الخلايا الإرهابية التى زرعها ورعاها إلى زمن، فقد يقل نشاطها، ولكنها ستظل موجودة، فالإرهاب سلوك قبل أن يكون ممارسة.

*** الدور الإسرائيلى:**

أول حادث اختطاف طائرة فى الجو، كما يوضح تشومسكى، لم يكن اختراعًا تعود ملكيته إلى بعض فصائل المقاومة الفلسطينية أو الإرهاب الدولى، وإنما اختراع إسرائيلى؛ ففى شهر ديسمبر من عام ١٩٥٤ قامت المقاتلات الإسرائيلية بالتعرض لطائرة مدنية سورية، وأرغمتها على الهبوط فى مطار اللد. ولم تكن حادثة الإرهاب الرسمى هذه من النوع الذى يمكن أن يمضى بسلام، بعد أن تجهز عليه الذاكرة التاريخية، وإنما كانت تتصل بالصورة الكلاسيكية المعروفة لإرهاب اختطاف الطائرة من الجو. ذلك أن موشى ديان صرح آنذاك بالحرف الواحد: أن حادث الاختطاف الجوى المذكور كان هدفه: «الحصول على رهائن يمكن استخدامهم فى المقايضة من أجل إطلاق سراح سجنائنا فى دمشق». كما يذكر تشومسكى أيضًا أن اغتيال الوسيط الدولى «برنادوت»، فى عام ١٩٤٨ كان عملاً إرهابيًّا أنجزته عصابة إرهابية يتزعمها إسحق شامير.. ويذكر أيضًا بالمذابح الإسرائيلية المبرمجة ضد الفلسطينيين، وبمعسكرات الاعتقال الشهيرة، وباستخدام قنابل النابالم، وبقيام السفن الإسرائيلية بعمليات الاختطاف والقرصنة فى عرض البحر.

ويخلص من ذلك كله إلى أن هذه الحقائق لم تصبح جزءًا فاعلاً فى الذاكرة التاريخية للإعلام المسيطر؛ نظرًا لأن الإرهاب «حسب شروط الخطاب الإعلامى الأميركى العنصرى يقتصر على الإشارة إلى عمليات الإرهاب التى يقوم بها العرب فقط وليس اليهود».

* * *